الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
Arab Private Schools Federation

إدارة المحن بين الضعف البشري والقوة الإلهية

قراءة في اللهمّ إليك أشكو

زاحم ساحات الجهل والباطل، يرجى نشر ما تقرأ من علم وحق. ولا تصمت صوتك في الحق

360 KNO SMART SCHOOLING
unicef
UNESCO United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization
GenEx Generational Education Exchange
تمكين TAMKEEN
UNIVERSITY OF VICTORIA LONDON - UK
AMIEE American International Education Federation

د. خميس بن عبيد العجمي
رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة عمان

هل تساءلت يوماً: متى يصبح الضّعف قوة؟

تحت شجرة في بستان على مشارف الطائف، يجلس هناك وحيداً، قدماه تنزفان، وثيابه ممزّقة، وحوله صدى رجم الحجارة وصرخات السّفهاء لا يزال يتردّد في أذنيه، والدّموع تنهمر على خدّيه ممزوجة بالدّماء، والقلب يحمل أثقل أوجاع الأرض، في هذا المشهد المهيب، يطرح الزّمان أسئلة مقلوبة عن كلّ ما نعرفه:

هل الضّعف دوماً علامة على الهزيمة؟

هل العجز عن الحلّ يعني نهاية الطريق؟

هل هوان الإنسان على الناس ينفي عزّته الحقيقيّة؟

ونعود للمشهد لنكشف اللثام عمّن حمل قلبه تلك الأوجاع، إنّه محمد صلّى اللّه عليه وسلّم، الذي اختاره اللّه ليكون خاتم الأنبياء، فها هو يرفع يديه إلى السماء ويقول بصوت مكسور: " اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلّة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمّني، أم إلى عدوّ ملّكته أمري؟ إنْ لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، ولكنّ عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أنْ تنزل بي غضبك أو يحلّ عليّ سخطك، لك العتبى حتّى ترضى ولا حول ولا قوّة إلا بك".

في هذه اللحظة الفاصلة، تنقلب كلّ المعادلات، فالأقوى يعترف بضعفه، والأحكم يقرّ بعجزه، والأكرم يشكو هوانه " اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلّة حيلتي، وهواني على الناس..."

فإذا كان النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم يشكو ضعفه، فما هي القوة الحقيقيّة؟

وإذا كان الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم يقرّ بقلّة حيلته، فما هي الحكمة الحقيقيّة؟

وإذا كان خير البشر يشكو هوانه على النّاس، فما هي العزة الحقيقيّة؟

هذه الأسئلة المقلوبة التي تعيد تشكيل الفهم، تقودنا إلى اكتشاف أنّ القوة الحقيقيّة في الاعتراف بالضّعف أمام اللّٰه، والحكمة الحقيقيّة تتواجد في إدراك حدود العقل البشريّ، والعزّة الحقيقيّة تتمثّل في العبودية للّٰه وحده، ففي هذا المشهد المؤثّر، نكتشف أنّ الانكسار الحقيقيّ ليس في السقوط، بل في الغرور، وأنّ الانتصار الحقيقي ليس في القوّة الظاهرة، بل في التوكّل على اللّٰه، وأنّ العزّة الحقيقيّة ليست في نظرة الناس، بل في صلة العبد بربّه، فما كان هذا الدّعاء إلا مفتاح الفرج، وما كان هذا الانكسار إلا بداية الانتصار، وما كان هذا الهوان إلا طريق العزة الحقيقيّة.

إنّ هذا الدعاء الذي قد يبدو في ظاهره شكوى لضعف وقلة حيلة، ماهو في حقيقته إلاّ منهج متكامل لإدارة المحن، ودليل روحيّ ونفسيّ لتحويل الضّعف إلى قوّة، واليأس إلى أمل، والهوان إلى عزّة باللّٰه، فهو دعاء يعيد تعريف مفاهيم القوّة والضّعف، والعزّة والهوان، من منظور إيماني يقلب المعادلات الدنيوية رأساً على عقب.

فلم يكن يوم الطائف مجرد رحلة دعوية لم تؤتِ اكلها، بل كان تجسيداً حقيقياً لمعنى المحنة بكل أبعادها، فقد خرج النبيّ صلّى اللّٰه عليه وسلّم إلى الطائف بعد عشر سنوات من الدعوة في مكة، حاملاً في قلبه بذرة الأمل الأخيرة، باحثاً عن أرض خصبة لدعوته المباركة، إلاّ أنّ الواقع فجعه بقسوة أشدّ ممّا توقّع، فكان رفض أهل الطائف له قاسياً، وإعراضهم عن دعوته مؤلماً، وإيذاؤهم له بالرجم من صغارهم مدمياً، فكانت الدّماء تسيل من قدميه الشريفتين، وقد تمزقت ثيابه، وجُرِح قلبه قبل أنْ يجرح جسده، ومن شدّة هذا اليوم وقسوته فقد وصفه الرّسول صلّى اللّٰه عليه وسلّم بأنّه "أشد يوم مرّ عليه"، فلم يدانِ في شدتّه يوم أُحد، حينما كُسِرت فيه رباعيّته وشُجّ رأسه، فقد تكالبت على الرسول المحن متتالية شديدة، فلم تكن محنة الطائف معزولة عن سياقها، بل جاءت في أعقاب فقدان أعزّ الناس إليه، فقد توفّيت زوجته خديجة، رفيقة دربه وسنده النفسي والماديّ، التي آمنت به حين كفر الناس، وصدّقته حين كذّبوه، وواسته بمالها حين أعسر، وفقد عمّه أبا طالب، الذي كان درعه الواقي من أذى قريش، وحاميه من كيد الأعداء.

وهكذا وجد النبيّ نفسه في مواجهة محنة ثلاثية الأبعاد؛ فقدان الدعم العاطفي (خديجة)، وفقدان الحماية السياسية (أبو طالب)، وفقدان الأمل في انتشار الدعوة (الطائف)، فكان هذا الدعاء بما يحمله من طلب للدعم الروحيّ والنفسيّ،

ففي قوله "اللهمّ إليك أشكو ضعف قوّتي"، ما يكفي لإحداث ثورة في فهم الطبيعة البشريّة، فالنبي، صلّى اللّٰه عليه وسلّم، وهو أكمل البشر، يعترف بضعفه وعجزه عن المواجهة المادية دون خجل أو مواربة، وهذا الإقرار ليس انهزاماً، بل هو أعلى درجات الوعي الذاتيّ والشجاعة النفسيّة، وهو بداية للقوّة الحقيقيّة، وتحرير له من وهم القوة المطلقة الذي يحمله كثير من الناس، فالذين يعيشون في وهم القوة الذاتية يكونون أكثر عرضة للانهيار عند مواجهة التحديات الحقيقية.

وفي قوله "وقلّة حيلتي"، إقرار بمحدوديّة القدرة الذهنيّة على إيجاد الحلول، فالحيلة في اللغة تعني التدبير والتخطيط، وهي ما يميّز الإنسان عن سائر المخلوقات، فالنبيّ صلّى اللّٰه عليه وسلّم يعترف بأنّ حيلته قليلة، وأنّ تدبيره محدود، وأنّ عقله البشري لا يستطيع أنْ يجد مخرجاً من هذه الأزمة، فهذا الإقرار هو درس في التواضع الفكري، فكم من أناس يظنّون أنّ العقل البشري قادر على حلّ المشاكل جميعها، وأنّ التخطيط والتدبير كافيان لتجاوز كلّ عقبة، ليصدمهم الواقع بمواقف تتجاوز قدرة العقل البشري، وتحتاج إلى تدخّل إلهيّ.

وفي قوله "وهواني على الناس"، انعكاس للبعد الاجتماعيّ للمحنة، فالإنسان كائن اجتماعيّ، ومكانته بين النّاس جزء من هويّته وكرامته، وعندما يشعر بأنّ الناس يستخفّون به، أو لا يقدّرون قدره، أو يتجاهلونه، فإنّ ذلك يشكّل ألماً نفسياً عميقاً، فالنبيّ يشكو هذا الهوان لا من باب الكبرياء الشّخصيّ، بل من باب الألم لرسالته التي لم تجد من يحملها، ولدعوته التي لم تجد من يتّبعها، فهو ألم الداعية الذي يرى الحق مهجوراً، والخير مرفوضاً، والناس معرضين عن الهداية.

وفي قول الرسول صلّى اللّٰه عليه وسلّم"اللهم إليك أشكو"، توجيه يحمل دلالة عميقة، فهو لم يشكُ إلى الناس، ولم يطلب منهم التعاطف أو المساعدة، بل توجّه مباشرة إلى اللّٰه، وهذا التّوجيه يعكس عمق الإيمان ونضج الشخصيّة، فالمؤمن الناضج يعلم عجز النّاس عن حلّ مشاكله الحقيقيّة، وأنّ اللّٰه وحده هو القادر على تغيير الأحوال، فهذا التوجيه يحرّر الإنسان من عبودية الخلق، ويجعله يعيش في حرية روحية

حقيقية، فالذي يشكو إلى الناس يصبح أسيراً لمشاعرهم وردود أفعالهم، أمّا الذي يشكو إلى اللّٰه فهو حرّ من كلّ القيود الدنيوية.

ومن المهمّ هاهنا أنْ نفهم بأنّ شكوى النبيّ لم تكن جزعاً من قضاء اللّٰه، بل كانت تعبيراً عن الألم الإنساني الطبيعيّ، فالإسلام لا يطلب من الإنسان أنْ يكون حجراً فاقداً للشّعور، بل يطلب منه أنْ يكون إنساناً يشعر بالألم دون جزع، ويحزن دون اعتراض على قدر اللّٰه، فالشّكوى إلى اللّٰه مشروعة ومستحبّة، لأنّها تعبير عن الافتقار إليه والثّقة به، فالذي يشكو بثّه وحزنه إلى اللّٰه يعلم أنّ اللّٰه قادر على تغيير حاله، وأنّ اللّٰه يسمع شكواه ويجيب دعاءه، أمّا الذي يشكو إلى الناس فهو يطلب من العاجز أنْ يساعد العاجز، ومن الضّعيف أنْ يقوّي الضّعيف.

ومن خلال تأمّل دعاء النبي صلّى اللّٰه عليه وسلّم في الطائف، نجد أنّه لم يكن مجرّد كلمات في لحظة ألم، بل منهجاً متكاملاً يرشدنا إلى خطوات عمليّة للتّغلّب على المحن والخروج منها أقوى وأكثر يقيناً، وبدايتها الاعتراف بالواقع، دون مراوغة أو إنكار، فالضعف والعجز والهوان ليس انهزاماً، بل هو شجاعة وصدق مع الذات، ومن ثم توجيه الشكوى إلى الله، فهذا التوجيه يحقق فوائد نفسيّة وروحيّة عديدة، ويحرّر الإنسان من عبودية الخلق، ويزيد من الثقة باللّٰه وقدرته على تغيير الأحوال، ويهدئ النفس ويخفّف من القلق والتوتّر، ويفتح باب الأمل في الفرج القريب، والصّبر النّشط، فهو موقف إيجابيّ يتضمّن الثبات على الحقّ والاستمرار في العمل رغم الصعوبات، فالنبي لم يتوقّف عن الدعوة بعد محنة الطائف، بل استمرّ في طريقه حتى فتح اللّٰه عليه، والبحث عن المعنى في كلّ محنة تحمل في طيّاتها معنى وحكمة، فالإنسان الذي يبحث عن معنى محنته يستطيع أنْ يحوّلها إلى فرصة للنمو والتطور، فمحنة الطائف علّمت النبيّ دروساً مهمّة في الصّبر والتوكّل، وأعدّته لمرحلة جديدة من الدعوة.

ومن هذا الدعاء وهذا المنهج، يمكننا أنْ نستشفّ عدداً من الدّروس التي من شأنها تسيير أمورنا أمام المحن التي نواجهها، ومنها؛

- الضعف باب القوة، فالاعتراف بالضعف هو أول خطوة نحو القوة الحقيقية. فالذي يعترف بضعفه يطلب القوة من مصدرها الحقيقي، أما الذي يدعي القوة فهو يعيش في وهم يحرمه من القوة الحقيقية.
- حدود العقل البشري تكشفها مواقف تتجاوز قدرته على الفهم والتحليل، وهذا لا يعني إلغاء دور العقل، بل يعني وضعه في موضعه الصحيح، فالعقل أداة مهمّة للفهم والتحليل، لكنّه ليس الحَكَم الأوحد في كلّ الأمور.
- المكانة الاجتماعية متغيّرة، فالناس قد يقدّرون الشخص اليوم ويستخفون به غداً، وهذا التّغيّر طبيعيّ ولا يجب أنْ يؤثّر في الثّقة بالنفس أو الإيمان بالرسالة.
- القدرة على التّكيّف مع الصعوبات والتعافي من الصدمات، من خلال الإيمان بمعنى أعظم للحياة، والثّقة باللّٰه وقدرته على تغيير الأحوال، والدّعم الرّوحي من خلال الصلاة والدعاء، والتركيز على الأهداف طويلة المدى، والقدرة على إعادة تفسير الأحداث السلبية.
- الإنسان يمكن أنْ يتحمّل أيّة معاناة إذا وجد الدعم الاجتماعي الذي يسانده في مواجهة محنه.
- الفرج قد يأتي من حيث لا نتوقع، وأنّ اللّٰه قادر على أنْ يجعل من أبسط الناس سبباً في تسلية المؤمن وتثبيته.
- الفشل الظاهري قد يكون نجاحاً خفياً، ورفض فئة من الناس لا يعني رفض الجميع، فاللّٰه قادر على أنْ يفتح أبواباً لم نكن نتوقّعها.
- من هان على الناس قد يكون عزيزاً عند اللّٰه، والذي يرفضه البشر قد يكرّمه الخالق، فهي معادلة إيمانيّة تقلب المفاهيم الدنيوية رأساً على عقب.

هذا ويمكن الاستفادة من تلك الدروس في زماننا المعاصر في مجال التربية، إذ يمكن للمربين والمعلمين أنْ يستفيدوا من هذا الدعاء في تربية الأجيال على الاعتراف بالضعف والحاجة إلى اللّٰه، وعدم الاعتماد على القوة الذاتية فقط، وفهم أنّ المكانة الاجتماعية متغيّرة ولا يجب أنْ تكون مقياساً للقيمة الحقيقية، وأنّ الصبر والتوكّل هما السبيل للتغلّب على الصعوبات.

وفي مجال القيادة والإدارة، فالقادة في مختلف المجالات يمكن أنْ يتعلّموا من هذا الموقف بأنّ الاعتراف بالضعف قوة وليس ضعفاً، وأنّ القائد الحقيقي هو الذي يتوكل على اللّٰه، وأنّ الفشل الظاهري قد يكون مقدمة للنجاح الحقيقي، وأنّ الصبر والمثابرة هما سر النجاح.

وبعد،

فإنّ هنالك منهجاً متكاملاً لإدارة المحن يمكن استخلاصه من خلال دعاء النبي، وهو ليس بالمنهج النظريّ وحسب، بل هو منهج عملي جرّبه النبّي وأثبت فعاليته، فدعاء "اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس" ليس مجرّد كلمات نقولها عند الشدة، بل هو منهج حياة، وفلسفة في التعامل مع الصعوبات، ومدرسة في التربية الروحية والنفسية، هو تذكير لنا بأنّ الإنسان مهما بلغ من القوة والحكمة والمكانة، فهو في النهاية عبد ضعيف، يحتاج إلى ربه في كل لحظة من لحظات حياته.

وفي عالمنا المعاصر، حين تكثر الضغوط النفسية والتحديات الاجتماعية، نحتاج إلى هذا الدعاء أكثر من أي وقت مضى، فهو يقدّم لنا بديلاً روحياً عن العلاج النفسيّ المادي، ومنهجاً إيمانياً للتعامل مع الصدمات والأزمات، فنحن عندما نفهم هذا الدعاء ونطبّقه في حياتنا، نكتشف أنّ الضعف يمكن أنْ يكون قوة، والعجز يمكن أنْ يكون حكمة، والهوان يمكن أنْ يكون عزّة، فهي معادلة إيمانيّة تحوّل الألم إلى أمل، والمحنة إلى منحة، والابتلاء إلى ارتقاء.
فقد قال ابن القيم رحمه اللّٰه :

ما ضعف من عَلِمَ أنّ القوة للّٰه، وما هان من عَلِمَ أنّ العزّة بيد اللّٰه